

شبكة الأسماء

حمادة حامد محمود نور الدين

كان العمّ منصور يصطاد في البحر الأحمر منذ ستين سنة، ولم يرجع يوماً بشباكٍ فارغة، حتى جاءت الليلة التي سحب فيها الشبكة فلم يجد فيها سمكةً واحدة. وجد فيها ضوءاً.

كانت أضواءً صغيرة، كلّ واحدٍ منها بحجم حبّة العدس، يرتجف بين خيوط الشبكة كأنه نبضٌ حيّ. وحين رفع أحدها إلى فانوسه سمعه يهمس بصوتٍ رفيع: «زينب». ثم رفع آخر فهمس: «عبد الرحيم». وثالثاً: «أمّ إبراهيم».

جلس العمّ منصور على حافة المركب وقد نسي الصيد. كان يعرف هذه الأسماء كلها. زينب أمّه التي ماتت وهو في العاشرة. عبد الرحيم رفيقه الذي غرق أمام عينيه في عاصفة لم ينجُ منها غيره. وأمّ إبراهيم التي كانت تبيع له الخبز في مرفأ الصيادين قبل أن يهدم الميناءَ الجديدُ كوخَها وتختفي.

أحسّ أنّ البحر يردّ إليه شيئاً. لكنّه كان رجلاً مجرّباً، يعرف أنّ البحر لا يعطي شيئاً بلا ثمن. فقال بصوتٍ عالٍ، وكأنه يحدّث رجلاً أمامه: «وماذا تريد مقابلها؟»

جاء الجواب من الماء نفسه، بصوتٍ مثل صوت الموج على الحصى: «شبكةٌ تحمل الأسماء تحتاج من يحملها. من يرفعها ينسى اسماً من أسمائه هو. اسماً واحداً كل ليلة.»

ضحك العمّ منصور ضحكةً قصيرة. اسمٌ واحد؟ عنده ستون سنةً من الأسماء، مثل سمكٍ كثير لا يُحصى. وقد ينسى بعضها فلا يضيع شيء. وافق، وهو لا يدري ماذا وافق عليه.

في الليلة الأولى نسي اسم جاره القديم الذي كان يزعجه بغنائه. لم يحزن، بل ارتاح. وفي الثانية نسي اسم المدرس الذي ضربه في الصغر. وفي الثالثة نسي اسم سوق السمك في مدينته الأولى. ثم صارت النسيانات أثقل: اسم ابنه الأصغر في لحظةٍ ما، فاحتاج إلى أن ينظر إلى وجهه طويلاً حتى عاد الاسم متردداً كضيفٍ استحى من التأخر.

وكلّ صباحٍ كان يعود إلى الشاطئ ومعه ضوءٌ أو ضوءان، يسلّمهما بنفسه. يمشي إلى بيت أمّ كانت تبكي ابنها، فيفتح كفّه، فيهمس الضوء بالاسم، ثم يذوب في الهواء، وتبتسم الأمّ من غير أن تعرف لماذا. ويمرّ على شيخٍ ينسى كل شيء، فيهمس له الضوء باسم

زوجته، فيمسك الشيخ يد العمّ منصور ويقول: «شكراً يا بنيّ، كنت أحاول أن أتذكّر منذ شهور.»

وفي ليلةٍ هادئة جاءه صيّادٌ شابّ اسمه حمدي، يحمل في عينيه خوفاً قديماً، وقال: «يا عمّ منصور، أبي غرق في هذا البحر قبل أن أولد. لم أسمع صوته مرّة. هل في شبكتك اسمه؟»

نظر العمّ منصور إلى الأفق، وكان القمر يذوب على الماء كحليبٍ مسكوب. قال: «لا أعرف يا بنيّ. الشبكة لا تطيع أحداً. هي تصعد بما تشاء.»

ظلّ حمدي ينتظر على الشاطئ ثلاث ليالٍ، ولم يصعد اسمُ أبيه. وفي الرابعة، حين كاد يعود يائساً، ارتفع من الماء ضوءٌ خافت جداً، متردّد، كأنه يخجل من أن يُرى. فتحه العمّ منصور على كفّه، فهمس بصوتٍ مبحوح: «حمدي.» لم يكن هذا اسم الأب. كان الاسم الذي همس به الأب في آخر لحظةٍ لابنٍ لم يولد بعد، قبل أن يبتلعه الموج.

جثا الشاب على الرمل، وغطّى وجهه، وبكى بكاء من وجد ما لم يعرف أنه يبحث عنه. ولم يقل العمّ منصور شيئاً، فقد كان يعرف أنّ بعض الأسماء لا تحتاج إلى شرح. ثم عاد إلى بيته، فوجد أنه نسي في تلك الليلة اسم الحبّ الأول الذي كان يخبّئه في جيب قلبه منذ ستين سنة. قال لنفسه: «هذا ثمنٌ عادل.» لكنّه جلس طويلاً على عتبة داره يحاول أن يتذكّر لون عينيها، فلم يفلح.

انتشر الخبر في القرية، ورأى الناس العمّ منصور يتغيّر. صار يتكلم أقلّ، ويشير أكثر، ويحدّق في الوجوه كأنه يحفظها قبل أن تضيع منه. قالت له ابنته الكبرى مريم: «يا أبي، كفى. أنت تعطيهم أسماءهم وتخسر أسماءنا.»

لم يردّ. نظر إليها بحنان، ثم سأل: «ما اسمك يا بنتي؟» ولم يكن يمزح.

بكت مريم تلك الليلة بكاءً طويلاً، وفي الفجر ركبت معه المركب دون أن يدعوها. جلست عند مقدّمة المركب وقالت: «اليوم أنا من سيرفع الشبكة.»

رفضت أن يحاول إقناعها. أمسكت الحبل الغليظ بيديها الصغيرتين، وشدّت، وكان الضوء الصاعد من الماء يغمر وجهها كلّه. ثم سمعت صوت البحر يقول: «من يرفعها ينسى اسماً.» فقالت بثبات: «سأنسى اسم البحر نفسه إن شئت، لكنّ أبي سيظلّ يتذكّر أسماءنا.»

صمت البحر زمناً طويلاً حتى ظنّت أنه غضب. ثم رأت من بين الأضواء ضوءاً واحداً أكبر من الباقي، لونه أزرق شاحب. اقترب من أبيها وهمس بصوتٍ يشبه صوت الأمّ التي ماتت: «منصور.»

كان هذا اسمه هو. اسمه الذي نسيه منذ ليالٍ ولم يعلم أنه نسيه، لأن الجميع كانوا ينادونه «يا عمّ». رفع العمّ منصور رأسه كمن استيقظ، وقال: «هذا اسمي.» ثم نظر إلى مريم وقال: «وهذه ابنتي مريم.»

قال البحر بهدوء: «لا ثمن لمن يحمل الأسماء لأجل غيره إذا حمل معه من يحبّه. أنتما الآن اثنان، فلن يضيع منكما اسم.»

ومنذ ذلك الفجر صار يخرج مع العمّ منصور كلّ ليلةٍ واحدٌ من أهل القرية، يرفع معه طرف الشبكة، ويسمع بنفسه الأسماء التي تعود. وصار الناس إذا فقدوا من يحبّون جاؤوا إلى الشاطئ قبل الفجر، فقد يجدون اسمه هناك يلمع بين خيوط الماء.

وأما العمّ منصور فتقاعد أخيراً، وجلس على الشاطئ في المساء يحكي لأحفاده كلّ ما تذكّره: أسماء الأمواج، وأسماء الرياح، وأسماء من أحبّوه. ويقول لهم دائماً قبل أن ينامو: «اذكروا اسم من تحبّون كل يوم، وبصوتٍ عالٍ. فالبحر يحتفظ بالأسماء، لكنّ القلوب هي التي تحتاجها.»

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app